



حين نتحدث عن الثورة السورية تحديداً فإننا نحاول ملامسة ظاهرةٍ جديدةٍ كلياً، خاصةً إذا أخذنا بالاعتبار كل ما فيها من خصوصيات سياسية وثقافية واجتماعية وجغرافية. ربما يطول الحديث ويتشعب، لكن الأمر ينتهي عند (اللامسة) وهو أبعد ما يكون عن (الإحاطة).

قد يكون هذا سبباً لكثيرٍ من المشاعر المتناقضة التي تراود السوريين وغيرهم هذه الأيام. فمنذ عامٍ مضى من عمر الزمان كانت سوريا، بسياساتها الخارجية وأوضاعها الداخلية، كتاباً مفتوحاً سهل القراءة. لكنها اليوم تكاد تكون لغزاً يُحير الكثيرين. وإذا بحثنا عن شيءٍ حققه هذه الثورة فقد يتمثل في كشف كثيرٍ مما كان مستوراً في سوريا وعنها.

كشفت الثورة أولاً حقيقة نظامٍ كان يملك أكثر من وجه. فوجةٌ يدعى الوداعة والتحضر، وأخرٌ يبني ملامح المقاومة والممانعة، وثالثٌ يتلبس لبوس المعاصرة والتقدير. أفلح النظام السوري ماهراً في اللعب على تناقضات المنطقة والنظام الدولي عقداً من الزمان، واستخدم تلك الوجوه بشكلٍ متناوب، إلى درجةٍ أصبحت فيها شعبيته بين بعض دول المنطقة كبيرة. كان المشهد سوريا ليأْ بكل معنى الكلمة، لكن الكذبة كبرت حتى أصبحت في نظر الكثيرين حقيقةً واقعة، وصار النظام أشبه بسرطان لبس قناع الحياة وبات وجوده طبيعياً وعادياً. لهذا، لم يكن ممكناً كشف حجم الزييف والتزوير والادعاء في هذا المجال بممارسةٍ عادية أياً كانت وفي أي ساحةٍ جاءت.

كان الأمر بحاجةٍ لثورة. وما إن أشعلها الشعب السوري حتى سقطت الوجوه والأقنعة، وظهرت حقيقة النظام الأصلية واضحةً كالشمس، بكل ما فيها من ملامح القبح وال بشاعة والتشويه على جميع المستويات. والخطير في الموضوع ليس جانبه الأخلاقي، رغم معاناته المعتبرة، وإنما أهميته الفائقة كتطورٍ إستراتيجيٍ إقليميٍ وعالميٍ بالغ الأهمية، لأن لسوريا دوراً حضارياً يجب أن تلعبه وستلعبه في نهاية المطاف، بما لها من رصيدٍ تاريخيٍ وإمكانات بشرية وموقع مميز في الجغرافيا السياسية. وهذا ما كان مستحياً في ظل الواقع السابق، وانفتحت أبوابه الآن رغم كل التضحيات.

كشفت الثورة السورية أيضاً، وتكشف باضطراد، الحاجة لنظامٍ إقليميٍ وعالميٍ سياسيٍ مختلف. وإذا كانت الثورات في مصر وتونس واليمن وليبيا قد وضعت هذا النظام أمام استحقاقات جديدة، فإن الثورة السورية أكدت بما لا يدع مجالاً للشك الحاجة إلى بلورة نظامٍ معاير لا يتعامل مع هذه الظاهرة بعقلية (الاستيعاب والالتفاف). فهذه الممارسة لم تعد كافية على الإطلاق. وإذا استمررت فإن العالم بأسره سيواجه تحديات ضخمة لن يمكن مقارنة تحديات العقد الماضي أمامها في

لكن أعظم ما كشفته الثورة السورية يتمثل في قدرة هذا الشعب على استخراج مخزونه الحضاري الهائل وإحداث نقلة في منظومة القيم والمعاني، وفي القدرة على التنسيق والابتكار والتنظيم، وعلى استيعاب المراحل وتوزيع الأدوار، وعلى خلق وتأمين شبكات فريدة ومتطرفة للعلاقات الاجتماعية باتت ترسم ملامح نسيجه الوطني. لا نقل هنا من قيمة التحديات وحجمها أيًّا كانت، وبعناوينها الكثيرة المعروفة. لكن هذا لا يجب أن يلهم العقلاً عن حجم الكمون الذي أظهرته الثورة، وعن ملامح سوريا الجديدة التي سيُظهرها هذا الكمون في آخر المطاف. لا تعد سوريا هؤلاء العقلاً، وهم كثُر رغم ضجيج شرائح أخرى. لفت نظري في هذا الإطار مقوله لأحد أبطال الثورة المجهولين من قلب حمص أنقلها بتصريف بسيط ويقول -فيها:-

«لم تعد تروقني الصورة الإعلامية التي تصنعها وسائل الإعلام عن ثورتنا.... فما أكثر ما يخرج لنا الناطقون الإعلاميون من هذا التجمع أو ذاك، ليندبوا حظهم ويشكوا قلة حيلتهم.....»

هكذا أُخرجت الأمور كلها من سياقها الأصلي، وتحولت قصتنا من ثوار أبطال... إلى شعب أعزل لا حول له ولا قوة.. وباتت ثورتنا (مصالحة إنسانية) تستحق الشفقة والبكاء في كل نشرة، ونسينا أننا بلغنا من القوة ما لم نبلغه طيلة عقود ماضية.... وأن النظام بلغ من الضعف ما لا يتصوره مراء.. من يريد أن ينجح في ثورة لا يبكي وهو يناشد العالم في التدخل ولا يوفر مناسبة ولا منبراً إعلامياً ولا تسمية جمعة إلا ويناشد (ضمائر وأخلاق العالم) للتدخل... هذه ثورة يا سادة... وكل ثورة تأتي بمصالح جديدة وتلغي مصالح قديمة. وهذا يعني بالضرورة وقوف الكثيرين ضد إفساد مصالحهم ودعم البعض لأجل إرساء مصالحهم المأمولة.. (ونظام الأسد بالذات لم ينجح سوى بربط مصالح العالم معه).. يكفي ندباً وبكاء ورجاءً واستجاءً.. ولنتحدث بمنطق القوة، بمنطق الثورة، منطق من أخذ زمام المبادرة، وصنع واحدة من أعظم الثورات العربية.....»..

كلامٌ معبرٌ أصيلٌ يُعبر عن روح الثورة السورية، فالمعطيات التي لدينا تؤكد بأن الأيام حُبلى بالكثير.. والأمور تتقدم رغم كل المظاهر.. ومسارات السياسة المُعلنة لا علاقة لها في بعض الأحيان بما يتم التحضير له في واقع الأرض.. هل يعلم الكثيرون معنى أن يدخل مراسلو الجزيرة والعربية (المناطق المحررة) في سوريا بكل حرية، وأن ينقلوا الصورة منها؟! هذا مثالٌ واحدٌ، والمهم ألا يتم السماح لضغط اللحظة الراهنة أن يدخل الوهن في النفوس ويشيع اليأس في قلوب الناس. باختصار، دعونا نتذكر دائماً ونذكر الآخرين: الثورة السورية أعظم ثورات العصر الحديث، فحذر من تزكيم صورة هذه الثورة بأي حالٍ من الأحوال.

المصدر: العربية نت نقلًّا عن "المدينة" السعودية

المصادر: